مذكرات تلميذة

لم تكن تبلغ قد بلغت الرابعة عشر بعد حين التقته كان شاباً وسيماً، أبيض البشرة، فارع الطول، نحيف القوام، يملك من حس الفكاهة ما جعلها تنجذب إليه، وحيث أنه قد أنهى للتو دراسته الجامعية، وحيث أنه حين رآها تشبث قلبه بطالبة الثانوي الجميلة، فقد افتعل حيلة ذكية للتقرب منها وتمكنه من رؤيتها بشكل يومي ،عرض على أبيها مساعدتها في مذاكرة دروسها وخاصة في مادة تخصصه في إحدى اللغات الأجنبية، وافق أبوها على أن يتم ذلك في حضوره.

فرح الشاب العاشق بموافقة الأب وقاسمته الفرحة فتاته العاشقه" ، وبرغم الصمت في الحصة الأولى من دروس العاشقين إلا أن أعينهما قالت كل شيء.

لم يدم الصمت طويلاً؛ ففي الحصة الثانية تجرأ الشاب واعترف لتلميذته بحبه لها، فما كان منها إلا أن ارتعشت خجلاً وسعادةً، طلب منها سماع ردها والذي تمنى في قرارة نفسه أن يكون بالإيجاب والقبول ،إلا أنها آثرت الصمت، ظل في كل مرة من المرات التالية يسألها نفس السؤال الذي

طال انتظار إجابته إلى أن جاءه الرد أخيراً بأن أطرقت برأسها في خجل عُذري تتمتع به الفتيات في تلك السن .

فهم الرد وتأكد من أنها تبادله نفس الشعور، فكانت سعادته عارمة بردّها الذي أثلج قلبه الملتهب عشقاً.

كتب لها أول خطاب غرامي ووضعه لها في كراسة الدرس، تلفتت حولها خوفاً من أن يراه أحد وهو يدس لها خطابه بين صفحات كراستها وحين اطمأنت أن أحداً لم يره أمسكت بكراستها واحتضنتها كأنها تخبيء كلمات حبيبها بين ضلوعها سراً لا يعرفه سواهما حتى لا يفسد أحد عليهما إحساسهما الجميل بالحب، بعد إنتهاء الحصة تسللت في هدوء إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها من الداخل وبدأت في قراءة أول خطابات حبيبها لها بل أول الخطابات الغرامية التي أتتها على الإطلاق، ثمة صور، كلمات، مواقف لا تنمحي من الذاكرة أبداً وخاصة في بدايات الحب، كالنظرة الأولى، الاعتراف الأول ، اللمسة الأولى، القبلة الأولى، الحضن الأول، وكذا الخطاب الأول. والسر هنا يكمن في أن للأشياء البِكر لذة من نوع آخر.

قرأت الخطاب مرات ومرات حتى حفظته كما تحفظ دروسها، ثم قامت بتمزيقه إرباً وألقت به في بالوعة حمام منزلهم خشية أن يعرف بأمرهما أحد أفراد أسرتها.

كتبت له الرد في ورقة من ورقات كراستها ثم استعدت للدرس، ناولته الكراسة بحجة تصحيح الواجب قرأ ما كتبته له، فارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة سرعان ما تراجع عنها حتى لا يلحظه أحد. أحبت دروسه وهو أيضاً، كانا ينتظران موعد لقائهما بصبرٍ بالغ، في كل مرة كان يكتب لها خطاباً كانت تتناوله منه في سرية وتقوم بدسه في كم قميصها وتناوله الرد على خطابه السابق بنفس السرية.

مرت الأيام والسنون حتى وصلت إلى السنة النهائية في المرحلة الثانوية وقبل انتهاء النصف الأول من العام الدراسي جاءه سفر مفاجيء للعمل في مدينة أسوان، حزنا لفراقهما لكنهما ظلا على اتصال بعد سفره، كانا يرسلان لبعضهما خطاباتهما عن طريق مكتب البريد حيث لم تكن قد اُختُرِعت رسائل البريد الإليكتروني آنذاك، فالرسائل التي لا تستغرق لحظة واحدة في إيصالها الآن كانت تستغرق عدة أسابيع قد تصل إلى شهر كامل، وفي أحسن الأحوال إذا تم إرسالها بالبريد السريع كانت تستغرق من خمسة

أيام إلى أسبوع لذا كانت الرسائل طعمها أشهى، فانتظار ساعي البريد يأتينا بخطاب الحبيب يضفي على حالة الحب للعاشقين مذاقاً أروع

كان يعمل بجدٍ واجتهاد، وكان شغله الشاغل أن يجمع أكبر قدر من المال حتى حين يعود إلى محبوبته يمكنه أن يطلب يدها من أبيها وخاصةً أنها أصبحت على أعتاب دخول الجامعة، وبدأ الخُطاب يتسابقون في طرق باب بيت أبيها طلباً للزواج بها.

عاد بعد حوالي شهرين متلهفاً لرؤيتها وهي كذلك، أخبرها في آخر خطاباته لها بموعد مجيئه.

أول مكان ساقته إليه قدماه لزيارته بعد عودته من أسوان هو بيت محبوبته، استقبله كل من في البيت استقبالاً حافلاً حيث أن كل أفراد الأسرة يحبونه ويعتبرونه فرداً منهم.

اندهش لأنه لم ير وجه محبوبته بين الوجوه التي كانت في استقباله، فقد كان يتوقع أنها ستكون هي أول من يستقبله فور عودته، ساوره الشك وبدأ يجول ببصره في أرجاء المكان باحثاً عنها بعينيه دون أن يتجرأ ويسأل أحداً من أهل البيت عنها وعن سبب تغيبها.

فجأة خرجت من غرفتها وأقبلت نحوه لتصافحه وترحب بمجيئه، فقد استعدت لاستقباله بأبهى حُلة حيث ارتدت فستاناً جميلاً و كان شعرها انعم من الحرير، كما كانت للمرة الأولى قد مشطت شعرها بطريقة أنثوية بعد أن تخلت عن تسريحتها المعتادة كتلميذة و لازالت ترتسم على وجهها بعض من ملامح الطفولة. فور أن رآها ذُهلَ لجمالها وكأنه يراها لأول مرة، نهض من على مقعده متلهفاً لمصافحتها ناظراً في عينيها ولسان حاله يقول "وحشتيني" خجلت من نظرة عينيه المملوءة شوقاً وتلون خداها بلون التفاح الأحمر الذي قد جلب منه كمية من أسوان بجانب بعض المنتجات الغذائية الأخرى والمشهورة بها تلك المدينة .

بعد تناول الغداء معهم طلب من أبيها أن يحدثه على انفراد في أمرٍ هام، وافق أبوها و دخلا في غرفة الضيوف وأغلق الباب خلفهما، لم يتعجب الأب من طلب الشاب فقد كان يعلم بقلب الأب أنه يحب ابنته حباً بريئاً وكذا هي.

وافق الأب على طلب الشاب ولكن بشرطٍ واحدٍ؛ وهو أن ينتظرها حتى تكمل تعليمها الجامعي وتنتهي تماماً من دراستها مع وعد منه بأنها لن تكون لغيره، وبرغم من صعوبة الشرط على الشاب العاشق إلا أنه لم يكن

أمامه سوى الموافقة على شرط الأب والانتظار أربع سنوات أخرى إضافة إلى السنوات الثلاثة الماضية التي مرت على حبه لها.

وبعد أن أدى خدمته العسكرية جاءه خبر تعيينه مدرساً بإحدى المدارس الحكومية في محافظة الفيوم، سافر لاستلام عمله الجديد، وقد حصل على سكن مناسب له وبعض من زملائه المغتربين مثله. لم تعد الخطابات تروي ظمأه ففكر في تركيب هاتف أرضي في الشقة التي كان يقطن بها مع زملائه حتى يمكنه مهاتفة حبيبته حين يشتاق لسماع صوتها، ولكن كانت المشكلة في أنها لا تملك هاتفاً في بيتها كي يهاتفها، فأعطاها رقم هاتفه وطلب منها أن تهاتفه هي، وبالفعل كانت تهاتفه من سنترال بلدتهم، حيث لم تكن الهواتف المحمولة قد اخترعت بعد، كانت تكتب رقم الهاتف في وريقة وتعطيه لموظف السنترال فيطلب لها الرقم ويطلب منها أن تدخل إحدى الكبائن الثلاث الموجودة في بهو السنترال. وحينها لم تكن تلك الطريقة آمنه بما يكفي حيث أنه كان من السهل على موظف السنترال التجسس على المكالمة بعدم وضع السماعة الأخرى بعد طلب الرقم لها فقد لجأت إلى الطريقة الأحدث وهي طريقة "العملات" حيث أنه بذات السنترال كانت توجد هواتف تعمل بطريقة وضع العملة في المكان المخصص لها ثم طلب الرقم المطلوب مهاتفته، وكانت كل عملة لها

عدد من الدقائق محدد أقلهم العشرة قروش وأكبرهم الخمسة وعشرين قرشاً، فالعشرة قروش تعطي دقيقتين والخمسة وعشرون قرشاً تعطي خمس دقائق . كانت معاناة البحث عن إيجاد عملة معدنية والحصول عليها ليس بالأمر الهين ومع ذلك كان لتلك المكالمات طعم آخر.

حتى تطورت فيما بعد طرق الاتصال وظهرت هواتف "الكروت" والتي كانت متوفرة في بعض الشوارع في المدن والمحافظات، وكان أقلهم الكارت ذي الخمسة جنيهات والذي كان يعطي عدداً من الدقائق لا بأس به تكفي لسماع صوت المحبين واطمئنان كل منهم على الآخر.

فترة الجامعة كانت من أهم وأصعب فترات حياة الطالبة، حيث كانت تلك الفترة ثرية بالأحداث والمستجدات التي لم تكن متوقعة على الإطلاق. في الواقع كانت فترة إختبار حقيقي لمدى صدق حب الطالبة لحبيبها ومدى جدية العلاقة بينهما، من ناحيتها كان الكثير من زملائها الطلاب يترددون إليها في محاولات عديدة للتقرب منها لما كانت تتمتع به من تلقائية وبساطة وبشاشة وجه جعل منها شخصية جذابة تلفت انتباه الجميع لها، حتى أن من بين هؤلاء الطلاب من كان أكثر غنىً من حبيبها لكن لم يغير ذلك من شعورها تجاهه. كانت مخلصةً لحبه في غيابه لفترات طويلة وهو خارج المحافظة في عمله.

على الجانب الآخر كان شديد الإخلاص لها حيث أنه في اغترابه كان كثير من العائلات تتمنى مصاهرته وكذلك البنات أنفسهن كن يتمنين ذلك لكن لم يكن في قلبه سواها .

مرت السنة الأولى لها في الجامعة بسلام دون حدوث شيء يلفت الانتباه، ولكن مع بداية العام الثاني حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تعرض أبوها لانتكاسة مهنية أفقدته عمله ومحل سكنه، ما جعل حياتهم الأسرية الهادئة المستقرة تنقلب رأساً على عقب. فاضطرت أسرتها للانتقال للعيش في سكن آخر مؤقت لحين تدبير أمورهم وفي ذلك الوقت لم يكن لهم عائل مادي غير الأب الذي أصابه مرض خطير- جراء ما حدث- جعله غير قادر على العمل في أي مكان آخر بعد فقدانه عمله الأساسي. ساءت الحالة النفسية لجميع أفراد الأسرة وحل الحزن والدموع محل السعادة والضحك، كان على الجميع سرعة التأقلم على الوضع الجديد، كما كان عليهم التعاون جميعاً والتفكير في بدائل للعيش واستكمال حياتهم التي لابد لها أن تستمر على أية حال.

فكرت الأم في العمل كبائعة للخضروات والفاكهة وهذا هو المتاح أمامها لأنها لا تملك شهادة دراسية تتيح لها العمل في مجال أفضل، في البداية اعترض أبناؤها على ذلك القرار وكان رأيهم أن هذا العمل البسيط لا يليق

بها لكنهم اضطروا في النهاية للموافقة حيث لم يكن أمامهم غير ذلك ، بل وحتى الأبناء أنفسهم بحث كل منهم عن عمل ولو بسيط يمكن من خلاله على الأقل الإنفاق على نفسه واستكمال تعليمه، فالجميع كانوا في مراحل تعليمية مختلفة ويحتاجون إلى المال لاستكمال دراستهم والمرور من تلك الأزمة بسلام .

حين علم أهل الحبيب بوضع أسرة خطيبة ابنهم وما طرأ عليها من تغيرات في وضعهم المادي وكذلك الاجتماعي طلبوا منه الابتعاد عنها وإلغاء أي اتفاق سابق بينه وبين أبيها، متذرعين في ذلك بأنها لم تعد العروس المناسبة له ولم يعد وضع عائلتها الجديد مناسب لوضعهم الاجتماعي المرموق – حسب زعمهم .

لم يستجب لرغبتهم بترك حبيبته بل تشاجر معهم بسبب إصرارهم على تركها وإصراره على التمسك بها.

ذهب إليها حزيناً شارد الذهن لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول ، حين رأته فهمت ما كانت تتوقع حدوثه، وبرغم من أنه لم يستجب لرغبة أهله بتركها إلا أن كلامهم معه جعله يهتز من داخله، وحين شعرت هي بذلك طلبت منه الابتعاد والاستسلام لرغبة أهله، سافر عائداً إلى عمله دون أن

يؤكد لها رغبته في الاستمرار، أو حتى الخضوع لرغبة أهله، تركها والأفكار تمزق خلايا عقلها، والآلام تقطع نياط قلبها.

مر أسبوع وهي لا تعلم عنه شيئاً، لم تفكر بمهاتفته أو حتى مراسلته كما كانت تفعل من قبل، برغم شوقها إليه وبرغم رغبتها الداخلية بتمسكه بها إلا أن كرامتها وعزة نفسها منعاها من التواصل معه ومحاولة التأثير عليه.

مر أسبوع آخر واثنين وثلاثة بل وشهر وو اثنان وثلاثة حتى غاب ستة أشهر كاملة انقطعت فيها أخباره عنها لا تعرف إن كان نسيها أم لازال يذكرها، إن كان قد تركها أم إنه متمسك بها ويريدها، وان كانت طيلة مدة غيابه أجابت على كل تلك الأسئلة بداخلها إلا أنها كانت تشعر أو بالأجري كانت تتمنى أن تكون الإجابة عكس ما تشير إليه المؤشرات. أحضرت ورقة وقلماً وبدأت تكتب: "أفتقدك كثيراً، فبغيابك غاب جزء مني، غبتَ ولم تغب، غبتَ وتركتني شيئاً ناقصاً مبتوراً مشوهاً فقد جماله بل وفقد حياته" بكت وهي تكتب رسالتها لكنها لم تقو على إرسالها، طبقتها وأحرقتها و قلبها بين ضلوعها يحترق .

وبينما كانت قد فقدت الأمل برجوعه، واستسلمت للأمر الواقع وعقدت العزم على ألا تنتظره بعد اليوم، وبدأت تدرب نفسها فعلياً على نسيانه كما نسيها هو واستطاع أن يبتعد عنها كل هذا الوقت وإذ بها تراه أمامها غير مصدقةً أنه هو، حين رأته قادماً إليها من بعيد تسمرت مكانها وهو لازال يقترب أكثر فأكثر وابتسامته الجميلة المعتذرة ترتسم على وجهه الملهوف، ودون أن تدري جرت نحوه وارتمت في حضنه وظلت تبكي كما لم تبك من قبل.

ما أحلى الرجوعَ إليه .. هكذا صار إحساس الحبيبة بعد دموع وسهر ، وتفكير لا ينقطع في غياب حبيبها، وعتاب ولوم وانفعال بعد رجوعه، عندما سألته لائمةً عن سبب غيابه الطويل أجابها إنه كان يحتاج وقت للتفكير وأخذ القرار بعيداً عنها وعن أهله أيضاً حتى لا يقع تحت تأثير أي منهم في إتخاذ قراره، وإنه كان في حيرة كبيرة بين قلبه وعقله وبينها وبين أهله بينما قلبه هو من انتصر في النهاية، فلم يقو خلال كل تلك الفترة الماضية على نسيانها رغم محاولاته الفاشلة .

أخبرته عن حالها المذري في غيابه، فطلب منها السماح والنسيان، قال لها فلنطوي صفحة الماضي ولنبدأ صفحة جديدة، وعدها أن ينسيها تلك الفترة القاسية من حياتهما وأن يعوضها عن كل دمعة حزينة سقطت من

عينيها، وأنه لن يتخلى عنها وأنه سوف يفي بوعده لها مهما كلفه الأمر، صدقته لأن قلبها صدقه قبلها، وهي تثق بقلبها الذي لم يخذلها أبداً. وعد ووفى بوعده ، فمنذ تلك اللحظة وعلى مدار الثلاثة أعوام التالية ورغم الأزمة التي حلت بها هي وأسرتها لازالت قائمة إلا أن وجوده بجوارها خفف من وطأتها كثيراً، حتى مرت السنوات سريعاً.

يوم ظهور نتيجة اختبارات السنة النهائية لها في كلية الآداب (الليسانس) فاجأها مفاجأة رائعة لم تخطر لها ببال، فقد عادت من كليتها إلى منزلها فرحة بنجاحها لتجد حبيبها بانتظارها ولكنه ليس بمفرده هذه المرة كالمعتاد فقد أحضر معه أمه وإثنين من إخوته، ليس هذا فحسب بل الأروع والأكثر مفاجأة هو إحضاره شبكة الخطوبة كهدية نجاحها.! أبهرتها هديته الرقيقة بالرغم من أن هديته تلك أو شبكتها التي أحضرها لخطبتها لم تختارها معه بل هو من اختارها على ذوقه، وهي تحب ذوقه وتثق به لذلك لم تعترض، بالعكس فقد شعرت أنها أجمل هدية أتتها يوم نجاحها بل أجمل هدية تلقتها في حياتها، شخص آخر هو من اعترض على ذلك هو أبوها وكذلك أمها الذين اندهشا من طريقته الغريبة تلك في خطبة ابنتهما، متسائلين: كيف تحضر فجأة لخطبة ابنتنا دون إعلامنا بمجيئك؟ ثم كيف تحضر شبكتها دون أن تختارها هي بنفسها؟ إلا أن إجابته الرائعة كانت

كفيلة بأن تجعل قلب الأب يرق ويوافق دون تردد على الخطبة، فقد قال له: إني أحبها يا عمي، ولقد تحملت وصبرتُ سبعة أعوام كما طلبت مني يوم أن جئتك طالباً الزواج بها وهي آنذاك بعد صغيرة، انتظرت رغم صعوبة الانتظار، وصبرت رغم مرارة الصبر، فلماذا تريد أن تحرمني من سعادتي وسعادتها الآن؟ اخترت أنا بنفسي شبكتها لأني أحبها، أردت أن أفعل شيئاً مختلفاً لم يفعله غيري قبلي، أردت أن أعبر لها ولكما عن مدى شوقي للارتباط بها، وإني انتظرتُ هذه اللحظة طويلاً، أرجوك لا تحرمني هذه السعادة من فضلك، وأعدك أنك لن تندم ، نظر الأب إلى ابنته ليعرف ردها على كلام حبيبها، فرأى في عينيها الموافقة، فما كان منه إلا أن وافق ارضاءً لها، فطالما أحب ابنته وأراد لها السعادة والهناء .

همست له متسائلةً: كيف أقنعت أهلك بالمجيء معك؟ ابتسم هامساً: سأخبركِ لاحقاً.

تمت الخطبة في جو عائلي بسيط، غمرت الفرحة الحبيبين وأسرتيهما، أحبته أكثر من ذي قبل، وفي خلال ثلاثة أشهر تم الزواج، وانتقلت للعيش معه في محافظة الفيوم ، وبعد حوالي عامين من الزواج المبارك رُزقا بمولودهما الأول ثمرة حبهما، وبعد عامين آخرين رُزقا بالثمرة الثانية، وهكذا كلل الله قصة حبهما القوية بالزواج السعيد .